هوامش

في مسلسل «النظام» The Regime، تدمّر المستشارة إيلينا فيرنهام بلدها. صورة كاريكاتيرية مريرة يمكن إسقاطها على مختلف الأنظمة الاستبدادية في عصرنا

كيت وينسلت في العرض الأول للمسلسل في نيويورك، فبراير 2024 (تشارلي تريبالو/ فرانس برس)

مسلسل «النظام»
هجاء مرير لمستبدّي عصرنا

محمد صبحي

الهجائيات السياسية لا تندثر طالما بقيت السلطة وظلّ هناك طامحون وطامعون فيها. آخر هجائيات السلطوية وقادتها تأتي في مسلسل أميركي قصير بعنوان «النظام» The Regime، بدأ عرضه أخيراً، وتدور أحداثه في دولة وسط أوروبية تحكمها مستشارة ديكتاتورية مصابة بالبارانويا وتسخر في خطاباتها من القادة الشموليين!

ومثل غيره، فـ«النظام» عبارة عن هجاء سياسي كثيف نوعاً، يتعزّز بأداءٍ وحشي تقريباً لكيت وينسلت، ويملك صلة ضئيلة بالواقع. وفي حين أن الفكاهة والتوصيفات الواردة نموذجية كما يليق بمحاكاة ساخرة، فإن جولة سريعة على ساسة وقادة عالمنا اليوم لن تعطي إحساساً أكثر رزانة أو رصانة. ما كان يمكن أن يكون في الستينيات، زمن دكتور سترينغلوف وجنون الحرب الباردة، هذياناً وشطحاً فنياً، يبدو اليوم مشابهاً تماماً لما بات وضعاً طبيعياً جديداً. في وقت الحروب الطائشة والمجانية والوحشية، تبدو محاكاة ساخرة أخرى لجنون السلطة أمراً أكثر من طبيعي، وربما أقل مما يجب.

تجري الأحداث في بلد لا يُذكر اسمه مطلقًا ولكنه موجود في مكان ما في أوروبا الشرقية، في ما كان يُطلق عليه ذات يوم «وراء الستار الحديدي». وفي حين أن البذخ الريفي الفخم واللغة الإنكليزية الأكاديمية للقادة السياسيين تعطي انطباعا آخر، فهذا بالضبط موقع الأحداث. بطلة القصة هي إيلينا فيرنهام (كيت وينسلت)، مستشارة البلاد، وهي امرأة تبدو ظاهرياً واثقة وعدوانية ولكنها في السرّ مليئة بالمخاوف والسلوك الغريب. متزوجة من فرنسي، وتستأجر هربرت زوباك (ماتياس شونارتس)، وهو جندي ذو ماضٍ عنيف و«مشهور» بقمع الاحتجاجات، لمساعدتها في أحد هواجسها المزمنة والوجودية: التحكم في رطوبة البيئة ونظافة الهواء من حولها.

ما يبدو علاقةً بسيطة بين رئيسة ومساعدٍ شخصي يصبح معقّداً عندما يبدأ الاثنان في الاتصال بطرق غير متوقعة: «يرى» كل منهما الآخر في أحلامه، ويواجهان مواقف غريبة داخل القصر الضخم، وما إلى ذلك. ينظر إليهما جميع الموظفين بغرابة - وزوج فيرنهام نفسه أكثرهم استغراباً - ولكن من الواضح أن هناك شيئاً ما يحدث بينهما. لا تتخذه المستشارة حارساً شخصياً وذراعاً يمنى فحسب، بل تبدأ في الاستماع إلى نصيحته حول كيفية حكم البلاد.

وهنا يأتي العنصر السياسي الآخر الأكثر مباشرة في الحبكة. فبفضل نصيحة هذا الرجل العنيف وغير المتعلّم، الذي لا يتسامح مع محاولات بعض قادة القوى العظمى الاستفادة من فيرنهام وبلدها الصغير الفلكلوري، فإنه «يدفعها» إلى اتخاذ موقف أكثر قومية، ورفض التعاون الاقتصادي مع الولايات المتحدة، مفضّلا الاختيار الصيني، ما يتسبّب في خروج كبير عن السيطرة خلف الكواليس، بين أوساط وعلى ألسنة تلك المجموعة من الوزراء والمتعاونين الذين يتبعونها في كل مكان، والساعين بدورهم إلى تغيير دفّة هذا التحوّل السياسي من أجل مصالح شخصية بحتة.

هذا المسار «الشعبوي» نحو التشبث والتغني بـ«ما لنا» و«خيرات البلد» الذي يقترحه خطاب المستشارة، قد يمتلك حالياً أوجه تشابه مع العالم الحقيقي، ولكن في المسلسل يأخذه مبدعوه أيضاً على محمل الجد. باختصار: من جانب أو آخر، يبدو أن لا مخرج معقولاً للبلاد. وفي هذه العملية، تصير إيلينا أكثر قسوة واستبدادية، وأكثر غرابة، في حين أن زوباك لا يدير كل شيء من الخلف فحسب، بل يبدأ في تجاوز دور «المستشارة» الذي يبدو أنه قد حققه ليصبح معلّماً، وربما ما هو أكثر. كل هذا سيفضي إلى ردّ فعل مضاد قوي، وسيُخصّص النصف الثاني من المسلسل لهذا «الهجوم المضاد» الذي يمكن أن يكون محلياً أو شيوعياً أو صينياً أو ثورياً أو إمبريالياً أو أي شيء آخر. الشيء المهم هنا هو أن إيلينا تفقد السيطرة أكثر فأكثر. وبدوره يفعل زوباك، بطرقه الأكثر عنفاً.

بهذا المعنى، فـ«النظام» ليس دقيقاً ولا منقّحاً في انتقاداته المباشرة لما يسمّى «شعبوية» حكام البلدان التي تتعامل مع ضغوط خارجية وداخلية بجميع أنواعها. قد تكون المستشارة ماهرة في استخدام وسائل الاتصال - وهي تلبس، علاوة على ذلك، مثل نجمات هوليوود في الخمسينيات، وهو ما تفعله وينسلت أيضاً إلى حد ما - ولكن هناك قوى ومناورات خلف الكواليس ليس من السهل كبحها. يُصوَّر زوباك رجلاً وحشياً وأخرق وعنيفاً، وفي الوقت ذاته، للغرابة، يملك أحياناً أفكاراً جيدة. والأهم من ذلك أنه يحبّها بجنون ولا يفكر في شيء سوى مساعدتها. حسناً، نعم، تراوده أيضاً بعض الأفكار الجنسية.

إلى ذلك، لا يمكن وصف «النظام» بالعمل البارع المحكم، فهو فظّ بعض الشيء، وأحياناً مضحك، وفي أحيان أخرى يمكن توقّعه. بعبارة أخرى، يعمل المسلسل من وقت لآخر، على فترات، غالباً عندما تصاب وينسلت ببعض الجنون الجامح (تحبّ المستشارة الغناء والرقص في المناسبات، وهو أمر تفعله بشكل سيئ للغاية)، وعندما يصبح من الواضح أنها بدأت تفقد ما تبقّى لها من عقل. فيما الممثل البلجيكي يشبه الغرانيت: قوة بدنية خالصة ووحشية. في المنتصف مجال لظهورات خاصة، مثل ظهور هيو غرانت ومارثا بليمبتون، اللذين لا يمضيان وقتاً ممتعاً مع هذا الشخص المتألّق والمتلاعب، خصوصاً بعدما يحظى، لفترة من الوقت على الأقل، بشعبية كبيرة بين شعبيهما.

كل هذا مبالغ فيه ومفرط ومبتذل تماماً في صقله المنحطّ، أكبر من اللازم، لتسهيل إدراك المفارقات والمساخر. ولكن حين يقارنه المرء بالواقع - مع إسرائيل مثلاً في أيامنا الحالية، من دون الذهاب إلى أبعد من ذلك - يلاحظ أن كل ما يبدو غريب الأطوار ومفرطاً ربما لا يكون سخيفاً وبعيداً عن الواقع كما يتصوّر. على الأقل، لم تستبح المستشارة شعباً محتلاً بأكمله، أو قتلت عمداً مدنيين عزّلاً يبحثون عن كيس دقيق، أو، أياً من تلك الأفعال الأخرى التي لا يقدم عليها إلا أشرار أقحاح مثل نتنياهو.

باختصار

مسلسل «النظام» هجاء سياسي كثيف نوعاً، يتعزّز بأداءٍ وحشي تقريباً لكيت وينسلت، ويملك صلة ضئيلة بالواقع

■■■

ما يبدو علاقةً بسيطة بين رئيسة ومساعدٍ شخصي يصبح معقّداً عندما يبدآن الاتصال بطرق غير متوقعة: «يرى» كل منهما الآخر في أحلامه

■■■

لا يمكن وصفه العمل البارع المحكم، فهو فظّ بعض الشيء، وأحياناً مضحك، وفي أحيان أخرى يمكن توقّعه

وأخيراً

جديد محمد كامل الخطيب

خطيب بدلة

صدورُ كتابٍ جديد، أو طبعة جديدة من كتاب قديم للسوري محمد كامل الخطيب، أمرٌ غير مفاجئ؛ فنحنُ أمامَ كاتبٍ في السادسة والسبعين من عمره، مستمرٍّ في الإنتاج الأدبي والفكري، وبغزارةٍ، منذ أزيد من نصف قرن، بالإضافة إلى أنّه ما يزال منشغلاً بقضايا النهضة العربية، وحواراتها، وسجالاتها الفكرية، ورَصْدِ التحوّلات التي طرأت على المجتمعات العربية، صعوداً وهبوطاً، نجاحاً ونكوصاً، وتدوينِها، وتحليلِها، وتوثيقِها. صدرت، قبل أيام، طبعةٌ جديدةٌ من كتابه «النهضة والإخفاق- مئتا عام من العذاب» (دار 0021، بيروت، 2024)، الذي يرصد فيه التقلبات في البلاد العربية بين عامي 1800، و2000. وكان هذا الكتاب قد صدر ضمن المشروع التأريخي - التوثيقي «قضايا وحوارات النهضة العربية» الذي تبنّته وزارة الثقافة السورية وكان محمد كامل الخطيب صاحبَ فكرته، فطُبعت، بين عامي 1988 و2000، مجموعةٌ كبيرة من الكتب، والدراسات، والمذكرات الشخصية التي كتبها أعلام النهضة، أو الأبحاث التي كُتبت عنهم، وقد ساهم في إنجاح المشروع كلّ من الوزيرة نجاح العطار، والروائي حنا مينه، والمفكر أنطون مقدسي، والكاتب المسرحي سعد الله ونوس، والناقد الفلسطيني فيصل دراج.

الكتابُ متوفّر على «النت». ولذلك، أكتفي هنا بتسجيل بعض أفكار رئيسية من مقدّمته، ابتداءً من تأكيد الكاتب أنّ النهضة العربية بدأت منذ أواسط القرن التاسع عشر، وأخذت، في الخمسينيات والستينيات، تُضيء الآمال، وأحلام التغيير، خصوصاً في مصر وسورية، فثمّة آنذاك، حركة تنويرية شاملة، وشخصيات، وإنجازات، رموزُها رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وطه حسين، وسامي الكيالي، وعبد الحميد بن باديس، وسلامة موسى، وساطع الحصري، وسليم خياطة... في ذلك العصر؛ خُلْخِلَت الأسسُ التقليدية للمجتمع والفكر القديمين، ولا سيما بعد انهيار السلطنة العَثمانية، إذ جرى تحديد مفهوم «الأمة العربية» بوصفها «رابطة» جديدة لبلاد الشام ومصر والعراق، مكان مفهوم الأمة الإسلامية. وعلى هذه الأرضية؛ نبتت مفهوماتٌ جديدة في العلاقات الاجتماعية، ومؤسّسات المجتمع، ففي مجال التعليم، مثلاً، حلّت المدرسة المدنية محلَّ الكُتّاب والمسجد والكنيسة، وجاء الأستاذ، بزيّه الأفرنجي، منافساً الإمامَ والشيخ والقسّيس، واعتُمرت القبعة بدلاً عن الطربوش والعمامة، وجاءت الأحزاب السياسية بديلاً عن المِلَل، وحلَّ مفهوم الديمقراطية (نظرياً) محلَّ الاستبدادِ الشرقي، وجاءت التنظيماتُ النقابية والمظاهرات السياسية مكانَ شغبِ العامة، وفي حقلِ الثقافةِ صرنا نقرأ الرواية والمسرحية والقصة القصيرة والفنون التشكيلية، وحركة تجديد الشعر، بدلاً عن الأنماط الكتابية القديمة.

ولكن، ومنذ السبعينيات، وبالتزامنِ مع الفورةِ النفطية، بدا وكأنّ هناك التفافاً، أو تراجعاً عن النهضة، بأشخاصها، وأفكارها، وقضاياها وتوجّهاتها، وجرت محاولة للتراجع عن المفهومات القومية، والعودة إلى تحديدِ الأمّة والشعب على أساسِ الدين والعقيدة، وتفجرت الحروب، والمذابح الطائفية، وهُوجمت الحزبية، والتعدّدية، بل الديمقراطية عموماً، وأعلن الحكام المستبدّون تديّنهم، في محاولةٍ منهم لتملّق التديّن السياسي من أجل الحصول على شيءٍ من المشروعية، وحتى الفنون الحديثة هُوجمت، ولم تسلم من الهجوم بعض الكتبِ التراثية مثل ألف ليلة وليلة، والفتوحات المكية لابن عربي، وعادت إلى الظهور نغمة أنّ الأرض ليست كروية، بل مسطحة وثابتة، حتى إن بعض ممثلي الفكر النهضوي، وقعوا في الهاوية، وشكلوا تيارات ماضوية حديثة، وراح بعض الماركسيين يبحثون في الماضي عن مشروعية أفكارهم وتقدّميّتهم عند أبي ذر الغفاري وابن سينا وابن رشد والقرامطة، قافزين فوق العصر والتاريخ وإنجازات العقلانية.. وهكذا؛ دخلت البلدان العربية في أشدِّ درجاتِ أزمتها خطورةً، مجتمعاتٍ وحكوماتٍ ومؤسساتٍ وأحزاباً وشعوباً.

> انشغل الخطيب بقضايا النهضة العربية، ورَصْدِ التحوّلات على المجتمعات العربية صعوداً وهبوطاً

هذا الكتاب، كما جاء في خاتمة مقدّمته، خلاصة مكثفة للمشروع الوثائقي التاريخي المُشار إليه، ومحاولةٌ للقيام بنظرةٍ تركيبية/ تكثيفية، تقدّم صورة عامة عن عصر النهضة الذي ما تزال تجري فيه حركة تغيير اجتماعي / ثقافي كبيرة.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**